حول بيت من الشعر . . .

اذكر اني يوم كنت اؤلف كتابي « المرأة جسد وروح » وقفت عند هذا البيت :

بنونا بنو ابنائنا وبناتُنا بنوهنّ ابناء الرجال الأباعد

واذ كان هذا البيت حجّةً شرعية يؤخذ بها حتى اليوم — مع الأسف — لغمط حق المرأة ، ولما كنت بحثت مطولاً عن صاحب هذا البيت والعصر الذي قيل فيه فلم اوفق الى ذلك ، رغم اتصالي بعدد غير قليل من علماء اللغة ورجال الادب ، فقد جئت راجياً منكم افادتي عن صاحب هذا البيت والعصر الذي قيل فيه ومدى انطباقه على الاحكام الشرعية ؟

الدكتور جورج حنا

الجواب : من الخير ان نذهب في الجواب مذهب السؤال في التقسيم ، فنقيمه اولاً على ما هو تاريخي ، لننتقل من بعد الى ما هو شرعي ، او نمعن فنقيمه على جوانبه الاساسية الثلاثية باضافة الجانب النحوي له .

في التاريخ : على شهرة هذا البيت لدى النحاة شاهداً من شواهد في باب المبتدأ والخبر ، ولدى الفرضيين (علماء الميراث) استئناساً به منهم في بحث دخول أبناء الابناء في الميراث وان الانتساب الى الآباء ، وعند الفقهاء كذلك في بحث الوصية ، وفي دائرة علماء البلاغة استفاض شاهداً في التشبيه .

اقول على شهرته لدى هؤلاء كلهم لم يعرف له قائل (راجع العيني في كتاب الشواهد .) غير ان البغدادي في خزانة الادب يضيف ان الكرماني في شرح شواهد الكافية عزاه الى الفرزدق ، (راجع ج ١ ص ٣٠٠ من الخزانة).

ورأيت في حواشي التوضيح لابن هشام من عزاه الى غسان بن وعلة الجاهلي ، ولعله اشتباه اوقع فيه ان الخطيب التبريزي في شرح ديوان الحماسة لابي تمام ، استشهد به عند شرح ابيات لغسان بن وعلة المذكور ، منها:

فان ابن أخت القوم مصغىً إناؤه
اذا لم يزاحم خاله بأب جلد

في الفقه : استأنس به الفقهاء استئناساً فقط ، تأكيداً لتعارف .. واما انه مصدر لاستمداد الاحكام فليس من درج منهم على هذا الصنيع من وجه ، كما انه في مجال الاستدلال على قواعدهم لايملك ان ينهض دليلاً .

في النحو : هو الشاهد الثالث والسبعون من شواهد النحاة ، ووجهه : ان المبتدأ والخبر اذا تساويا تعريفاً وتخصيصاً ، يجوز تأخير المبتدأ اذا كان هناك قرينة معنوية على تعيين المبتدأ .. والمعنى :

ان بني ابنائنا مثل بنينا ، لا ان بنينا مثل بني ابنائنا .

قال الانباري في الانصاف :

ذهب الكوفيون الى انه لا يجوز تقديم خبر المبتدأ عليه مفرداً كان او جملة ، واجازه البصريون لمجيئه في كلام العرب نظماً ونثراً ، واستشهد بالبيت المذكور .

قسماً بثنايا لؤلؤه . . .

تحية وبعد ، فقد كنا جماعة من متذوقي الادب في سهرة خاصة ، فسمعنا في احدى الاذاعات العربية اغنية « مضناك جفاه مرقده » لأحمد شوقي وغناء عبد الوهاب . وقد تساءل احدنا عن معنى بيت شوقي :

قسما بثنايا لؤلؤه قسم الياقوت منضده

فجرى خلاف بيننا دام وقتاً طويلاً ؛ ثم اقترح احدنا ان نوجه اليكم سؤالاً عن معنى البيت ، بعد ان قرأنا في الصحف نبأ عزمكم على إصدار مجلة تعنى بشؤون الادب ، فهل لكم ان تفيدونا في الموضوع ؟

نوري الأنسي

الجواب : قبل المضي في الجواب ، يحسن ان نلفت النظر الى ان رواية البيت في الاغنية وكما هو مثبت في السؤال جاءت محرّفة ، وصواب الرواية كما هي في الديوان :

قسماً بثناياً ، لؤلؤها قسم الياقوتَ منضدهُ

واظن المعنى وفق هذه الرواية واضحاً ، فهو من ضروب التشبيه البليغ ، اي كما قسم الياقوت منضده . . . او من ضروب

التشبيه المقلوب ، اي قسم الياقوت منضده قسمةَ ذلك اللؤلؤ ، او هو من باب الايهام ، اي لؤلؤها قسم فيه منضده الياقوت، ومرجع الضميرين على هذا الوجه اللؤلؤ لا الياقوت .

ومثله واقع كثيراً في تراكيب القدماء ، ولا بدع فهذه القصيدة كلها خارجة مخرجها وجارية مع عمودها ... واذا ساغ هذا المعنى فيكون ناظراً الى ابيات المنازي في زعم المشارقة او ابيات حمدونة بنت زياد من « وادي آش » في زعم المغاربة التي منها :

يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وعلى تقدير ان الرواية المغناة صحيحة ، يكون المعنى : « قسم الياقوت منضده مقسماً بثنايا لؤلؤه بانها نسقٌ معها »... على اعتبار ان ثنايا لؤلؤها مثله الارفع المحتذى .

وفيه من الاسقاط والطي بيانياً والتكلف في التخريج نحوياً ، ما في بيت ابي تمام في المدح :

كأن لدن القنا ، يقفوك منهزماً
اذا تيممتَ أطراف القنا اللدن

فقد ذهب نفر من شراحه الى ان معناه : « اذا تيممت اطراف الرماح المشرعة، انت في سرعة إقدامك، كأن الرماح تقفوك وانت منهزم » .

ووجه الصورة : انت في شدة إقدامك واستبسالك ، مثلما انت في شدة انكفائك وارتدادك ، لو كنت المنهزم في لحظة مطاردة الرماح ... وفيه من تنافر الاضداد (الاضواء والظلال) ما يدهش .

وعوداً الى بيت شوقي اقول، على تقدير ان الرواية المغناة صحيحة ، يكون المعنى ما سبقنا ببيانه ، وهو يستقيم اذا اخذناه بيتاً مفرداً ... ولكنه مع تتالي الاصناف المقسم بها بعد في القصيدة يبدو البيت محرفاً عن وجهه ، استحساناً من الملحن اللاحن على ما يظهر ، بحسبانه انه ادخل في مذاهب النغم ... واليكها :

قسماً بثنايا ، لؤلؤها قسم الياقوتَ منضده
ورضابٍ يوعَد كوثرَه مقتولُ العشق ومُشهَدُه
وبخالٍ كاد يُحجّ له لو كان يقبّل اسوده
وقوام يروي الغصن له نسباً، والرمحُ يفنده
ما خنت هواك ولا خطرت سلوى بالقلب تبرده ...

أخمرة أم خمر ؟

ايّ هو الصواب : خمرة ام خمر ؟ واذا كان التجويد هو الصواب فهل هي مذكرة ام مؤنثة ؟

« ص. ل »

الجواب : الصواب فيها حذف الهاء قطعاً ، ولم ترد باثباتها عند من يُعتد به ، وشدد به النضر بن شميل .

وتكلف اللغويون لجواز إثباتها (على معنى القطعة من الخمر، كما يقال كنا في لحمة ونبيذة وعسلة ، اي في قطعة من كل شيء منها) .

اما كونها مذكرة او مؤنثة ، فمحلّ خلاف كبير بين اللغويين .. جوّزهما جميعاً بعض منهم ، وانكر الاصمعي جواز التذكير .

وهذا السؤال ينبغي ان يطرح بين ايدينا من جديد مشكلة التذكير والتأنيث السماعيين ، اي مشكلة ما ليس مقترناً بعلامة لفظية .

وهذه المشكلة شعر بخطرها وتعقدها القدماء فأفردوها بالتأليف كثيراً ، اضف الى هذا ما جرى حول كلماتها من خلاف كبير يأخذ عليك سبل الاعتماد .

ولقد عرضتُ لبحث هذه المشكلة سنة ١٩٣٨ في كتابي (مقدمة لدرس لغة العرب) ، وانتهيت بعد بسط وعرض وتعليل ، الى ضرورة ان نأخذ بمذهب ابن السكيت وابن الانباري ، وهو : ان العرب تجترىء على تذكير ما ليست فيه علامة تأنيث لفظية ، حتى فيما ثبت تأنيثه قطعاً .. واستشهدا لمذهبهما بقول الشاعر :

(والعين بالاثمد الحاريّ مكحول) .

ولا نحتاج الى تبيان ان كلمة العين مؤنثة دون منازع ، (راجع خاتمة المصباح المنير ص ٨٨٤ .)

عبد الله العلايلي